المقتطف

الجزء الثالث من السنة الثامنة عشرة

١ دسمبر (كانون ١) سنة ١٨٩٣ الموافق ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٣١١

علي باشا مبارك

اذا قيّض الله لبلاد ان تفكّ قيود الذل وتمزّق غلالة الخسف نهض العصاميّون من بنيها فرأوا السبيل الى السيادة ممهدًا لهم لا يزاحمهم عليهِ مزاحم حتى اذا استتب الامن فيها ورتعت في بحبوحتهِ استأثر ابناؤهم بالسيادة وصار سبيل غيرهم من العصاميين حرجًا كثير الزحام. ولذلك كثر العصاميون في هذا القطر بعد تولي العزيز محمد علي باشا عليهِ فارتقوا من حضيض الذل والمسكنة الى اعلى مراتب المجد والسؤدد. وقد اوردنا ترجمة اثنين من هؤلاء النوابغ العصاميين الذين قرنوا العلم بالعمل وهما محمود باشا الفلكي وعبد الله باشا فكري. ثم فجع القطر بوفاة كبيرهم الذي لهُ في نشر المعارف اليد الطولى وفي تهذيب الاخلاق القدح المعلى وهو الشيخ الجليل والامير الكبير علي باشا مبارك فرأينا ان نلخص ترجمتهُ مما كتبهُ عن نفسهِ في كتابهِ الكبير الخطط التوفيقيّة لما فيهِ من التحقيق في الرواية والوصف المشبع لاحوال البلاد وتدرّجها في مدارج العمران ونشفع ذلك بما نعلمهُ بالخُبْر من حال الفقيد ووافر علمهِ وواسع روايتهِ فنقول

وُلد صاحب الترجمة في قرية برنبال الجديدة احدى قرى الدقهليّة ورحل بهِ ابوهُ الى قرية في بلاد الشرقيّة فرارًا من الظلم والجور ثم الى عرب السماعنة فاكرموهُ وبنوا جامعًا جعلوهُ امامهُ فسلم ابنهُ صاحب الترجمة الى معلم اسمهُ الشيخ احمد ابو خضر ليعلمهُ القراءة فختم القرآن عندهُ بداية ثم تركهُ لكثرة ضربهِ لهُ فارسلهُ ابوهُ الى رجل من الكتّاب ليتعلم منهُ صناعة الكتابة فاقام في بيتهِ وكان يبيت طاويًا من الجوع في غالب ايامهِ. ثم ضربهُ هذا الكاتب وشجّ رأسهُ فذهب الى والدهِ يشكوهُ اليهِ فلم ينل منهُ الاّ التعنيف فهرب

قاصدًا المطرية جهة المنزلة ليلحق بخالة لهُ هناك وما زال يفرُّ من مكان الى آخر الى ان ألحق بكاتب في مأموريَّة ابي كبير يبيض لهُ الدفاتر باجرة خمسين غرشًا في الشهر تحسب لهُ ولا تُدفع اليهِ . فقبض مرةً مالاً من حاصل ابي كبير واخذ منهُ قدر اجرته فاغاظ الكاتب منهُ واتفق مع مأمور ابي كبير على الحاقهِ بالجند ووضعاهُ في السجن فاقام فيهِ بضعة وعشرين يومًا والحديد في عنقهِ وارسل يخبر والدهُ بذلك فذهب ابوهُ الى المرحوم محمد علي باشا عزيز مصر وكان بناحية منية القمح وشكا اليهِ امر ابنهِ فامر باطلاقهِ. وجاء حينئذٍ خادم يطلب من السجان كاتبًا للمأموريَّة زراعة القطن وكان صاحب الترجمة قد اعطى السجان شيئًا من المال الذي بيدهِ فدلَّ الخادم عليهِ ووصفهُ لهُ بالنجابة وحسن الخط فطلب الخادم منهُ ان يكتب شيئًا يراهُ المأمور فكتب عريضة واعتنى بها وسلمهُ اياها واعطاهُ عشرين غرشًا ليسهّل لهُ السبيل عند مخدومهِ ووعدهُ باكثر من ذلك ايضًا فاخذها وبعد قليل حضر بامر الافراج عنهُ واخذهُ الى المأمور وهو اسود حبشي لكنهُ سمح جليل مهيب وكان مشايخ البلاد والحكَّام وقوفًا بين يديهِ . فدخل وقبَّل يدهُ فكلمهُ المأمور بكلام عربي فصيح وقال لهُ أتريد ان تكون معي كاتبًا ولك عندي جراية كل يوم وخمسة وسبعون غرشًا في الشهر فقال نعم وانصرف من امامهِ وجلس مع الخدم

قال "وكنت اعرف من المشايخ الذين كانوا بين يديهِ جماعة من مشاهير البلاد اصحاب الثروة والخدم والحشم والعبيد فاستغربتُ ما رأيتهُ من وقوفهم بين يديهِ وامتثالهم اوامرهُ وكنت لم أرَ مثل ذلك قبل ولم اسمع بهِ بل اعتقد ان الحكام لا يكونون الاَّ من الاتراك على حسب ما جرت بهِ العادة في تلك الازمان وبقيتُ متعجبًا متحيرًا في السبب الذي جعل السادة يقفون امام العبيد ويقبلون ايديهم وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب فكان ذلك من دواعي ملازمتي لهُ وفي اليوم التالي اتى والدي بامر العزيز فادخلهُ على المأمور وعرفهُ بهِ فبش في وجههِ واجلسهُ واكرمهُ وكان والدي جميل الهيئة ابيض اللون فصيحًا متأدبًا آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليهِ فكلمهُ في شأني فقال لهُ اني قد اخترتهُ ليكون معي وجعلت لهُ مرتبًا فان احببت فذاك فشكر لهُ والدي ورضي ان اكون معهُ وانصرف من مجلسهِ مسرورًا ولما سهرت مع والدي ليلاً جعلت كلامي معهُ في هذا المأمور فقلت لهُ هذا المأمور ليس من الاتراك لانهُ اسود فاجابني انهُ يمكن ان يكون عبدًا عتيقًا فقلت هل يكون العبد حاكمًا مع ان اكابر البلاد لا يكونون حكامًا فضلاً عن العبيد فجعل يجيبني باجوبة لا تقنعني وكان يقول لعل سبب ذلك مكارم اخلاقهِ

ومعرفتهُ فأقول وما معرفتهُ فيقول لعلهُ جاور في الازهر وتعلم فيهِ فأقول وهل التعلم في الازهر يؤدي الى ان يكون الانسان حاكماً ومن خرج من الازهر حاكماً فيقول يا ولدي كلنا عبيد الله والله تعالى يرفع من يشاء فاقول لكن الاسباب لا بد منها وجعل يعظني ويذكر لي حكايات واشعاراً لم اقع بها ثم اوصاني بملازمتهِ وامتثال اوامرهِ وبعد يومين سافر عني وتركني عندهُ ثم جعلت اقول في نفسي ان الكتابة والاجرة كانتا السبب في سجني ووضع الحديد في رقبتي وقد وجدت هذا المأمور خلصني من ذلك فلو فعل المأمور بي مثل ما فعل الكاتب فمن يخلصني. وكانت همتي في ان اتخلص من كل ذلك ومن امثالهِ وأود ان اكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها. وفي اثناء ذلك صادفت فراشاً لهُ فجعلت اتفحص منهُ عن اخبار سيدهِ واسباب ترقيهِ وكنت استرق منهُ ذلك استراقاً فاخبرني ان سيدهُ مشترى سيدة من السيدات وقد ادخلتهُ سيدتهُ مدرسة قصر العيني لما فتح العزيز المدارس وادخل فيها الولدان. واخبرني انهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركيَّة وغير ذلك وان الحكام انما يؤخذون من المدارس. فحينئذ عزمت ان ادخل المدارس وسألتهُ هل يدخلها احد من الفلاحين فقال انهُ يدخلها صاحب الواسطة"

ومن ثمَّ جعل صاحب الترجمة يفكر في طريقة يصل بها الى هذه المدرسة فاستأذن ليمضي ويزور اهلهُ فرأى في طريقهِ تلامذة احد المكاتب ورأوا خطهُ فوجدوهُ احسن من خطوطهم فقال بعضهم لبعض لو لحق هذا بالمكتب لكان جاويشاً وقال مقدمهم ذلك قليل عليهِ فان خط الباش جاويش الذي عندنا لا يساوي خطهُ فسألهم ما الجاويش وما الباش جاويش فقالوا لهُ انهما المقدمان في المكتب. ثم علم منهم ان نجباء المكاتب ينتقلون الى المدارس بلا واسطة. فدخل المكتب وكان ناظرهُ من معارف والدهِ فاراد ان يمنعهُ من الانتظام في عقد التلامذة مرضاةً لوالدهِ فلم يسمع لهُ. ثم اتى والدهُ واختطفهُ وسار بهِ الى بلدهِ وحبسهُ في البيت نحو عشرة ايام. وكانت لهم غنيمات فصار يرعاها وأُبعد عن صناعة الكتابة لئلاَّ تكون سبباً لفراق والديهِ لكنهُ هرب من البيت ذات ليلة وعاد الى المكتب الذي اختطفهُ ابوهُ منهُ. وحاول ابوهُ اختطافهُ بعد ذلك او اقناعهُ بالرجوع الى البيت فلم يفلح وتمَّ لصاحب الترجمة ما قُدِّر لهُ وهو دخول مدرسة قصر العيني فدخلها سنة ١٢٥١ للهجرة فوجدها على غير ما ظنَّ فانهُ وجد التربية مجهولة فيها والتعليم غير معتنًى بهِ وكان جميع الآمرين فيها يؤذون التلامذة بالضرب وانواع السب والاهانة من غير حساب ولا حرج مع كثرة الاغراض. وكانت فرش التلامذة حصر الخلفاء

واغطيتهم احرمة الصوف الغليظ من نسج بولاق . فلما رأى هذه الحال ضاق ذرعاً وظن انهُ جنى على نفسهِ. ومرض حينئذٍ حتى اشرف على الموت وكان في المستشفى يطوي على الطوى حتى كان يمصُّ العظام التي يلقيها الآكلون. واتى ابوهُ حينئذٍ ورشا الحاجب لكي يسلمهُ اياهُ فيهرب بهِ اما هو فخاف عاقبة الهرب وصبر على مضض البلوى ولسان حالهِ يقول

عسى الكرب الذي امسيت فيهِ يكون وراءهُ فرج قريبُ

ولما شفي عاد الى المدرسة واشتغل بدروسهِ ونُقل الى مدرسة ابي زعبل في اواخر سنة ١٢٥٢ لان قصر العيني جعل مدرسة للطب كما هو الآن . وكان اصعب العلوم عليهِ علم الحساب والهندسة والنحو فكان يراها كالطلاسم ويرى كلام المعلمين فيها كالسحر وبقي كذلك الى ان جمع ابرهيم بك رأفت ناظر المدرسة متأخري التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالهم اليها وجعلهم فرقة واحدة وكان صاحب الترجمة في آخرهم وجعل يلقي عليهم الدروس بالايضاح التام . قال صاحب الترجمة " وفي اول درس القاهُ علينا افصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح والفاظ وجيزة وبيَّن اهميَّة الحدود والتعريفات الموضوعة في اوائل الفنون وان الحروف التي اصطلحوا عليها تُستعمل في اسماء الاشكال واجزائها كاستعمال الاسماء للاشخاص فكما ان للانسان ان يختار لابنهِ ما شاء من الاسماء كذلك المعبر عن الاشكال لهُ ان يختار لها ما شاء من الحروف. فانفتح من حسن بيانهِ قفل قلبي ووعيت ما قال وكانت طريقتهُ باب الفتوح عليَّ ولم اقم من اول درس الاَّ على فائدة وهكذا جميع دروسهِ بخلاف غيرهِ من المعلمين فانهم لم تكن لهم هذه الطريقة وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لي من الفهم . فخدمت عليهِ في اول سنة الهندسة والحساب وصرتُ اول فرقتي وبقيت في النحو على الحالة الاولى لعدم تغيُّر المعلم وطريقة التعليم السيئة. وكان رأفت بك يضرب بي المثل ويجعل نجابتي على يدهِ برهاناً على سوء تعليم المعلمين وان سوء التعليم هو السبب في تأخر التلامذة "

والظاهر ان طريقة رأفت بك رسخت في ذهن النقيد فقد رأيناهُ يهتم بطرق التعليم اهتماماً شديداً حينما كان ناظراً للمعارف منذ اربع سنوات وسمعناهُ يشرح اصول العلوم الهندسيَّة شرحاً يقرّبها من اذهان الطلبة على مثل ما شُرحت لهُ في حداثتهِ

وفي تلك السنة وهي سنة ١٢٥٥ اختير بعض التلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق وكان صاحب الترجمة منهم فاقام بها خمس سنوات وكان اول فرقتهِ وتلقى فيها علم الجبر

والميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات وحساب التفاضل وعلم الفلك وعلم الادروليك والطبوغرافية والكيمياء والطبيعة والمعادن والجيولوجية والهندسة الوصفيَّة وقطع الاحجار وقطع الاخشاب والظل والنظر والقسموغرافيا . ولم يكن في يد التلامذة كتب في هذه العلوم فكانوا ينسخون ما يلقى عليهم من الدرس نسخاً

وسنة ١٢٦٠ عزم محمَّد علي باشا عزيز مصر على ارسال انجاله الى فرنسا ليتعلموا فيها واوعز الى سليمان باشا الفرنسوي ان ينتخب جماعة من نجباء التلامذة ليكونوا معهم فكان صاحب الترجمة بين المنتخبين وكان لامبر بك ناظر المدرسة حينئذٍ فحاول منعهُ عن السفر واغراهُ بالبقاء في المدرسة ووعدهُ برتبة وراتب لكنهُ فضل السفر واكتساب المعارف على البقاء واكتساب المال اي انهُ فضل الكثير الآجل على القليل العاجل شأن اهل الحكمة والتدبير فنال ما املهُ وجُعل لهُ مئتان وخمسون غرشاً كل شهر مثل غيرهِ من التلامذة الذين ذهبوا مع انجال العزيز فكان ينفق نصفها على نفسهِ ويعطي النصف الآخر لاهلهِ لانهم كانوا فقراء مثل آباء كل الصاميين

وبقي في فرنسا سنتين وكانت الدروس تلقى عليهم باللغة الفرنسوية وهو لا يعلمها فشمَّر عن ساعد الجد ودرس هذه اللغة بهمة لا تعرف الملل حتى صار اول الرسالة كلها هو وحماد بك وعلي باشا ابرهيم . وذهب المرحوم ابرهيم باشا الكبير الى باريس حينئذٍ فامتحنهم وسرَّ بتقدمهم واجاز صاحب الترجمة بالجائزة الثانية وهي نسخة من جغرافية ملطبرون .وبعد سنتين أُرسل هؤلاء الثلاثة الى مدرسة الطبجيَّة والهندسة الحربيَّة في متس وأُعطوا رتبة الملازم الثاني فاقاموا بها سنتين وتعلموا فيها فن الاستحكامات الخفيفة والاستحكامات الثقيلة والعمارات المائيَّة والهوائيَّة عسكريَّة ومدنيَّة والالغام وفن الحرب. وكان ابرهيم باشا يودُّ ان يقيموا في العسكريَّة الفرنسويَّة حتى يستوفوا فوائدها ثم يسيحوا في الديار الاوربيَّة ويشاهدوا ما فيها من الاعمال الحربيَّة وليطبقوا العلم على العمل ولكنهُ قُبض الى رحمة مولاهُ قبل اتمام هذه الامنيَّة وتولى حكومة مصر المرحوم عباس باشا فاعادهم الى مصر وأبطل المكتب الذي خصص للتلامذة المصريين في اوربا وأبطلت الرسالة المصريَّة وعُيِّن صاحب الترجمة مدرِّساً في مدرسة طرة وأُعطي رتبة يوزباشي اول.وفُرِّزت تلامذة المدارس حينئذٍ وجُعل المتقدمون منهم في مدرسة المفروزة فلم يبقَ في مدرسة طرة الَّا جماعة قليلة من التلامذة المتقدمين في السن وبقي عند صاحب الترجمة تلميذ واحد

ومضى حينئذٍ لزيارة بيت ابيهِ وهي اول مرة زارهُ فيها بعد ابتعادهِ عنهُ مدة اربع عشرة سنة فلم يجد في المنزل الاَّ والدتهُ وبعض اخوتهِ وكان دخولهُ عليهم ليلاً فطرق الباب فقيل لهُ من انت فقال انا ابنكم علي مبارك وكان لابسًا لبس الجنود الفرنسويَّة فقامت امهُ وفتحت الباب بعد ان تعرَّفتهُ جيدًا وعانقتهُ ووقعت مغشيًّا عليها واقبل اهل البيت والاقارب والجيران فرحين بهِ. ورأى ان امهُ تريد ان تظهر فرحها بوليمة تولمها لهُ وليس بيدها شيءٌ من الدراهم وكانت تبكي من جراء ذلك فاعطاها عشرة دنانير فرنسويَّة كانت في جيبهِ فزاد فرحها فرحًا واولمت الوليمة .

ثم استدعاهُ عباس باشا هو وحماد بك وعلي باشا ابرهيم وعيَّنهم لامتحان مهندسي الارياف ومعلمي المدارس وشرط عليهم ان لا يتكلموا الاَّ بالصدق ولو على انفسهم واذا كذب احدهم في شيءٍ فجزاؤهُ سلب نعمتهِ والباسهُ لبس الفلاحين ثم حلَّفهم على ذلك وانعم عليهم برتبة الصاغقول اغاسي فاشتغلوا بما نيط بهم على الوجه الاتم وامتحنوا المهندسين فأُبدل كثيرون منهم بغيرهم من ارباب المعارف الذين تربوا في المهندسخانة . وطلب منهم تفحص شلال اسوان لبيان الطريق الاسلم لسير المراكب فتفحَّصوهُ ورسموهُ فوفى رسمهم بالغرض المطلوب . وكان النيل قد جار على مدينة منفلوط فأُمروا ان يذهبوا اليها ويشيروا ما يمنع ضررهُ منها ففعلوا ولما عادوا الى القاهرة أُمروا بالذهاب الى القناطر الخيريَّة للمذاكرة مع رئيس مهندسيها في الطريقة التي تمنع الخطر عن المراكب بسبب التيار الحادث فيها فان القناطر كانت قد قاربت التمام وكان مهندسها موزيل بك قد ارتأى ان تنشأ ترع لمرور المراكب فلم يوافقهُ عباس باشا على ذلك لكثرة النفقات التي يقتضيها انشاء هذه الترع فلما تذاكروا معهُ قرَّ رأيهم على استخدام الوابورات لسحب المراكب ومنع ضرر التيَّار عنها فوافق عباس باشا على هذا الرأي وامر ان يُعمل بهِ وكان يحيل على صاحب الترجمة ورفيقيهِ الاشغال المهندسيَّة التي ترد اليهِ من دواوين الحكومة. وعرض عليهِ لامبر بك ترتيبًا للمدارس الملكيَّة والمرصد الفلكي تبلغ نفقتهُ مئة الف جنيه في السنة فاستكثرها وطلب من صاحب الترجمة ورفيقيهِ ان ينظروا في هذا الترتيب فتداولوا فيهِ اياماً ولم يجمع رأيهم على شيءٍ وخاف صاحب الترجمة ان يفوت الوقت قبل ان يتموا ما أُمروا بهِ فاشار بان تجمع جميع المدارس في مكان واحد فتكون نفقاتها السنويَّة خمسة آلاف جنيه فقط ووضع ترتيبًا لذلك واغضي عن الوصدخانة اذ لم يكن بين ابناء الوطن حينئذٍ من يحسن القيام بها واشار بان يرسل جماعة الى بلاد الافرنج ليتعلموا فنون

الرصد قبل انشائها. ولما تلا هذا الترتيب على رفيقيه لم يوافقاه عليه

ولا ندري كيف استطاع صاحب الترجمة ان يجمع كل المدارس الاميرية في مكان واحد ويقصر نفقاتها على خمسة آلاف جنيه في السنة ولا ما هي نسبة ذلك الى تأخر المعارف الذي بلغ حده في زمن المرحوم سعيد باشا كما سيجيء . ولعله رأى بفراسته ان المعارف ستهمل اهمالاً تامًّا فاختار القليل على العدم

وبعد قليل طلب منهم المرحوم عباس باشا ان يقدموا الترتيب الذي اجمعوا عليه فقدموا هذا الترتيب لانهم لم يكونوا قد وضعوا غيره فاستغربه ولما رأى ان اثنين منهم مخالفان لواضعه احال النظر فيه الى مجلس مؤلف من جميع رؤساء الدواوين ومن لا مير بك فانعقد المجلس وقرّ رأي الأعضاء عليه بعد ان تناقشوا فيه سبعة ايام وقدرت خلاصة باستحسانه واستحقاق صاحب الترجمة رتبة امير آلاي . فاستدعاه عباس باشا وسأله عن هذا الترتيب وكيفية نجاحه فابان له ان نجاحه منوط بمن يتولى ادارته فعجب من جرأته واستحسن جوابه وجعله ناظرًا لتلك المدرسة الجامعة واعطاه الرتبة والنشان الخاص بها واحال عليه تعيين معلمي المدرسة المفروزة وترتيب دروسها واختيار كتبها وصار له عنده منزلة رفيعة. وكان يؤلف كتب التدريس وانشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية والجنود نحو ستين الف نسخة من الكتب المتنوعة غير ما طبع بمطبعة الحجر من الكتب ذات الاطالس والرسوم واستخدم التلامذة لرسمها. ولم يشغله ذلك عن الاهتمام بشؤون التلامذة من حيث المأكل والمشرب والملبس والتعليم وكان يعلّم التلامذة كيف يلبسون وكيف يقرأون وكيف يكتبون ويراقب المعلمين في القاء الدروس وتأديب التلامذة . ولم يكتفِ بذلك بل فرض على نفسه دروسًا يلقيها على التلامذة كالطبيعة والعمارة

وقال ان مسعاه نجح ونجب كثير من التلامذة وترقى بعضهم الى الرتب العالية وخرج منهم معلمون متقنون وكانت المدارس تزيد صلاحًا والتلامذة نجاحًا والمعلمون اجتهادًا . وكان ما ينالهُ التلامذة ومعلموهم من الجوائز والثناء والتشويق والترغيب داعيًا لهم الى زيادة الجد والاجتهاد وتوأد المعلمون وتربى التلامذة على الاخاء وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة حتى لم يعد داعٍ لغير النصح واللوم في تأديبهم من فرط منهُ امر وانقطع الشتم والسفه وكاد الضرب يمتنع لان صاحب الترجمة كان ينظر الى الجمع من معلمين ومتعلمين نظر الاب الى اولاده وظهرت نتيجته فيهم حينما تولى المرحوم سعيد

باشا وارسلهُ مع الجنود المصريَّة لمعاونة الدولة العثمانية على حرب الروس فانهم خرجوا جميعهم الى شاطيء النيل لوداعهِ وهمْ يبكون وينتحبون لفراقهِ رغمًا عن اساتذتهم

وقد نسب اخراجهُ من نظارة التعليم وارسالهُ مع الجند الى دسائس المفسدين ولكنهُ لم يندم على ما حدث بل رأى ان العاقبة كانت خيرًا لهُ لانهُ استفاد ممَّا لقي من المخاطر والمشاق وتعلم اللغة التركيَّة واوفى ما عليهِ من الديون براتبهِ واكتفى بما كان يجري عليهِ من الرزق واقتصد منهُ مبلغ ثلثمئة جنيه عاد بها الى مصر. وكان قد اقترن بفتاة ذات مال وعقار فبنى بيتها من مالهِ وانفق عليهِ نحو ثلاثة آلاف جنيه لكن اعترضهُ من مفاسد اهل البغي والفساد ما سوَّد بوصفهِ صفحةً كبيرة من تاريخهِ وقال "انهُ قاسى في ذلك من الشدائد والاهوال وعجائب الاحوال ما لو وصفهُ لطال الشرح واتسع المجال"

ولما عاد من هذا السفر الطويل أُطلق سبيل الجنود فرجعوا الى بيوتهم ورفت كثير من الضباط وكان هو في جملتهم فاستأجر بيتًا صغيرًا سكن فيهِ مع اخٍ لهُ كان قد تركهُ في المدرسة عند سفرهِ فطُرد منها في غيبتهِ ولم يعطف عليهِ احد الَّا سليمان باشا الفرنسوي. وكانت حال صاحب الترجمة حينئذٍ اي بعد رجوعهِ من اوربا بسبع سنين كحالتهِ يوم عاد منها كأن كل ما بذلهُ في خدمة وطنهِ لم يكن شيئًا مذكورًا وذهب كل ما كسبهُ من الاموال وما حازهُ من المناصب ولم يبقَ لهُ غير ما اكسبتهُ اياهُ الايام من الاختبار فحلا لهُ التخلي عن الخطط والمناصب وعزم على الرجوع الى بلدهِ والانقطاع الى الفلاحة والتعيش منها. وقال "عوضنا الله خيرًا عن نتائج الفكر وثمرات المعارف ولنفرض اننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منهُ". وبينما هو يتجهز للسفر صدر الامر بان يجتمع جميع الضباط المرفوتين في القلعة فكُتب اسمهُ بين المختارين للخدمة وبعد قليل عُين معاونًا بديوان الجهاديَّة وأُحيل عليهِ النظر في القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبخانات وغيرها من ملحقات الجهاديَّة. ثم دعي الى وكالة مجلس التجار مكان رجل من الارمن. قال وكان لهذا الرجل "سند قوي سهل لهُ بهِ الوصول الى المرحوم سعيد باشا فرمى فيَّ بما رمى فرُفعت من هذه الوظيفة وتأسف لرفعي التجار البلديون لما رأَوهُ من البت سريعًا في القضايا على وجه الحق"

ثم عُين مفتش هندسة في الوجه القبلي فاقام في هذا المنصب شهرين. ودعاهُ المرحوم سعيد باشا لرسم الاستحكامات في ابي حماد فرسمها وجعل يتبع سعيد باشا من مكان الى آخر ليعرض الرسم عليهِ وهو لا يثبت في مكان ولبث اشهرًا لا عمل لهُ غير التنقل وراء سعيد باشا.

وطالما سمعنا من صاحب الترجمة وصف تلك التنقلات وما كان يلاقيه فيها من المشقة على غير جدوى واخيراً وقع نظر سعيد باشا عليه فناداه وكلمه وسأله ماذا صنع بالرسم فقدمه له فنظر فيه قليلاً ثم قال له "ابقه حتى نجد وقتاً لامعان النظر فيه ولم يلتفت اليه بعد ذلك"

ثم امر المرحوم سعيد باشا بتعليم الضباط مبادئ القراءة والكتابة فتبرع صاحب الترجمة بتعليمهم قال "وكنت اكتب لهم حروف الهجاء بيدي ولعدم الثبات في مكان واحد كنت اذهب اليهم في خيامهم وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الارض وتارة بالفحم على بلاط المحلات حتى صار ليعضهم المام بالخط وعرفوا قواعد الحساب الاساسية فجعلت نجباءهم عرفاء استعنت بهم على تعليم الآخرين فازداد التعليم واتسعت دائرته. واستعملت في تعليمهم مهمات القواعد الهندسية اللازمة للعساكر الحبل والعصا لا غير"

واننا نخال القارئ الذي اتبع سيرة الفقيد الى هذا الحد يقف مبهوتاً كما وقفنا لان غرس المعارف الذي غرسه المغفور له محمد علي باشا الكبير وتعهده تعهد الاب الشفوق والحكيم المدبر وانفق عليه القناطير المقنطرة من اموال المصريين وخيرات ارضهم واستخدم لانجاحه مدارس اوربا وعلماءها ومؤلفيها ورغب المصريين في اجتناء ثماره بكل واسطة ممكنة ذوى وذوت البلاد معه حتى حكم صاحب الترجمة "وجميع رؤساء الدواوين" ان خمسة آلاف جنيه تكفي للانفاق على التعليم والتهذيب وان القطر لا يحتاج الى اكثر من ذلك

فاين الارتقاء الذي ارتقته البلاد في عهد المغفور له محمد علي باشا وعهدنا بالبلدان المرتقية تطلب الزيادة دواماً لان ما يكفيها اليوم لا يكفيها غداً. ألم يكن ارتقاؤها ظفرة باغتتها مباغتة فلما عادت الى مجراها الطبيعي عاد ناظر المعارف الذي تعلم في اعظم مدارس فرنسا يعلم الضباط مبادئ القراءة والكتابة ويدرسهم الهندسة بالعصا والحبل ويكتب لهم بالفحم حروف الهجاء اما الآلات العلمية والادوات الهندسية والكتب والدفاتر فحسبت بين النفايات وبيعت للتجار بابخس الاثمان. قال صاحب الترجمة "وصدر الامر بعدئذ ببيع بعض اشياء من تعلقات الحكومة زائدة عن الحاجة من عقارات وغيرها وكان المأمور بذلك المرحوم اسمعيل باشا الفريق وكان لي من المحبين وكنت جاره في السكنى فاستصحبني معه الى بولاق وخلافها من محلات البيع فلما حضرت المزادات رأيت الاشياء تباع بابخس الاثمان ورأيت ما كان لمدرسة المهندسخانة من اللوازم والاشياء الثمينة العظيمة

وفي جملتها الكتب التي كنت طبعتها وغيرها تباع بتراب الفلوس وكذا اشياء كثيرة من نحو آلات الحديد والنحاس والرصاص والفضيّات والمرايات والساعات والمفروشات وغير ذلك وليتها كانت تباع بالنقد في الحال بل كانت الاثمان تؤجل بالآجال البعيدة وبعضها بأوراق المأهيّات ونحو ذلك من انواع التسهيل على المشتري فكان التجار يربحون فيها ارباحًا جمة فلبطالتي واستدانتي وكثرة مصروفي مالت نفسي للشراء من هذه الاشياء والدخول في التجارة ففعلت وعاملت التجار وعرفتهم وعرفوني وكثر مني الشراء والبيع فربحت واستعنت بذلك على المصروف واداء بعض الحقوق"

هذا ما صار عليهِ حال البلاد من حيث العلوم والفنون وما وصل اليهِ صاحب الترجمة لما توفي المرحوم سعيد باشا . وقد تصرفنا بعض التصرف في ما اقتبسناه عنهُ اقتباسًا صريحًا وتابعناهُ في سائر ما رويناهُ عنهُ متوخين تبيان حال البلاد كما يظهر في ترجمتهِ . وسنوافي القراء ببقيّة الترجمة في الاجزاء التالية

الطعام والكوليرا

لقد اثبت الباحثون في طبيعة الكوليرا وانتشارها انها تنتشر من مكان الى آخر بواسطة الماء على الاكثر واثبتوا ايضًا انها تنتشر بواسطة مواد الطعام كاللبن والاثمار والخبز والزبدة ولذلك دعت الحال الى البحث عن المدة التي يحياها ميكروب الكوليرا على مواد الطعام المختلفة اذا اتصل بها قصدًا او عَرَضًا. واشهر الباحثين في هذا الموضوع الدكتور دنهام وقد وجد انهُ اذا وُضع ميكروب الكوليرا على اوراق البقول التي تصنع منها السلطة ووضعت هذه الاوراق في غرفة حرارتها عاديّة بقي الميكروب حيًّا عليها خمسة ايام . واذا وُضع على القنبيط المطبوخ بقي عليهِ حيًّا ستة ايام الى عشرة . واذا كان القنبيط غير مطبوخ بقي الميكروب عليهِ حيًّا ثلاثة عشر يومًا

وقد بحث الدكتور فردريك حديثًا في هذا الموضوع ونقلت جريدة ناتشر نتيجة بحثهِ وقالت فيهِ ان المواد التي بحث فيها كثيرة تبلغ الخمسين عدًّا وتشمل انواعًا مختلفة من الاثمار والخضر عدا اللبن والشاي والقهوة والكوكو والبيرة والنبيذ والكفياري والبقسماط والملبس والثيغ والسعوط . فاذا اتصل ميكروب الكوليرا بظاهر المواد فقط فمدة بقائهِ عليها حيًّا تتوقف على مقدار رطوبتها او رطوبة ما جاورها لان هذا الميكروب